من أفق إلى أفق

مغالبة جبل إفرست !

إذا قدر للانسان أن يصل إلى قمة إفرست ، فأنه بذلك يضيف نصراً عظيما إلى سالف انتصاراته على الطبيعة . وليت شعرى ما عسى أن تجىء به الأيام فى أمر تلك المحاولة الهائلة ؟! على أن الانسان الآن من تلك القمة الشاهقة على قاب قوسين ! أجل ليس ثمة الآن من مسافة بين البقعة التى وصل إليها الانسان أخيراً وبين تلك القمة التى تعتبر أعلى مكان فى كوكبنا هذا ، إلا بقدر ما تسميه جولة يسيرة . ومن هاتيك البقعة تبدأ المحاولة الكبرى أو يبدأ الامتحان العظيم ، فأن تلك الجولة اليسيرة طالما قهرت الانسان وردته ، وظلت قمة إفرست على قربها من الانسان قرباً يتحداه ويضايقه ، لم تطأها إلى اليوم قدم بشرية !

ومن الصعب أن نتبين مدى قرب الانسان من النجاح فى تلك المحاولة ، ولكن فلأحاول أن أصور الموضوع لذهنك بعض التصوير

هأنذا رجل يبلغ طولى ستة أقدام ، فهل فى وسعك أن تتخيل نموذجاً صغيراً لهذا الجبل فى نفس الطول ؟ إذا استطعت أن تمثل فى خاطرك هذا الجبل الصغير فاعلم أن الانسان فى عدة محاولات سلفت قد استطاع أن يصل منه إلى بقعة هى فى مستوى عينى ، وليس بين تلك البقعة وبين القمة إلا مقدار ما بين عينى وقمة رأسى . أما ارتفاع الجبل الحقيقى فيبلغ تسعة وعشرين ألف قدم ، وما بقى منه يتحدى مغالبيه يبلغ الألف فحسب ، بل إنه فى الواقع دون الألف بقليل

وسيأتى عاجلاً أو آجلاً اليوم الذى يرقى فيه الانسان قمة ذلك الهرم الساخر من قدرته . وليس ما يتساءل عنه الآن هو إمكان صعوده ، وإنما سؤاله هو : « متى يكون ذلك الصعود ؟ »

ويرجع تسمية أعلى جبال العالم باسمه هذا ، إلى « سير جورج إفرست » ، الرجل الذى حدد موضعه وقاس ارتفاعه ، وهو على بعد مئة ؛ وما كان يمكن قبل أن يدنو منه أحد ، فلقد ظل الكثيرون من بواسل المتسلقين زماناً يرجون الوصول الى قاعدته ليروا ماذا يستطيعون فعله حيال هذا الجبل الشاهق . وان يتيسر الوصول الى تلك القاعدة الا عن طريقين ، أحدهما يخترق قرية « نيبال » والآخر يخترق قرية « تيت » ؛ ولكن حكام كلا القريتين كانوا يأبون أن يسمحوا لأحد بالوصول الى الجبل . ذلك أنه عندهم بمثابة « أولمبوس » عند الأغريق ، أعنى أنه مقر آلهتهم ، ومن أجل هذا ظلوا زمناً مصممين على منع الدنو منه

ولقد قام « سير جورج افرست » بتحديد ارتفاعه عام ١٨٤١ . وبعد ذلك بثمانى سنوات سوياً برهنت حكومة تيبت على مقدار ما تمكنه من شعور المودة نحو بريطانيا ، بأن سمحت بما كانت تأباه من قبل

على أن أولى الحملات التى أرسلت على هذا الجبل لم تقع إلا عام ١٩٢١ ، وكانت وجهتها فى الحقيقة معرفة ما إذا كان من الممكن تسلقه . ومن البديهى أنهم لو وجدوا ذلك يسيراً فما كان هناك من الأوامر ما يحول بينهم وبين السير إلى القمة ، ولكن الغرض الأساسى للحملة كان معرفة مدى ما يمكن الوصول اليه

ويقع جبل أفرست على بعد ثمانين ميلاً من « دراچيلنج » أقرب مكان اليه فى الهند . ولقد أظهرت المناظير المقربة أن من الممكن تسلقه . على أنه حتى ذلك اليوم لم يتعد أى رجل من البيض فى قربه من الجبل أكثر من أربعين ميلاً . ومن المسلم أن ما يقف عليه المرء من المعلومات عند سفحه أضعاف ما يستطيع الوصول اليه على ذلك البعد ؛ ولكن البعثة على الرغم من ذلك وصلت إلى نتيجتين كلتاهما على جانب عظيم من الأهمية : أولاهما أنه إذا كان من الممكن تسلق الجبل فلن يكون ذلك إلا من جهة واحدة ؛ والثانية أن كل محاولة لا بد أن يتقرر نجاحها فى الفترة ما بين أول مايو ومنتصف يونيو . وعلة ذلك أنه لا يستطيع أى إنسان الصمود على جوانب ذلك الجبل فى معظم شهور السنة نظراً للأحوال المناخية القاسية ؛ حتى إذا كان مايو تحسنت تلك الأحوال بعض الشىء ، ولكن ذلك التحسن لا يدوم طويلاً ، ففى منتصف يونيو يبدأ تهطال الأمطار الموسمية على الهند ، ولن يقف أمر تلك الأمطار عند ما يصحبها من رداءة الجو ، بل إن الثلج فى ذلك الوقت يأخذ فى الزحف من مكامنه وذلك هو الموت

ولكن مع أن التسلق لا يبدأ فعلاً الا فى أول مايو ، فأن ما يسبق ذلك من أهبة يبدأ قبل عدة شهور . فلابد أن يبحث عن قائد ؛ ثم لابد أن يتخير ذلك القائد من الرجال من يصحبه ؛ وهو فى ذلك لا يبحث عن مهرة المتسلقين فحسب ، بل تراه يبحث عمن تقاربت قوى احتمالهم حتى يواصلوا السير جماعة ، فان الصمود الى مثل ما يتطلبون ارتقاءه من المرتفعات يفقد المرء اتزانه ، ويشيع الهياج والاضطراب فى أعصابه

ولن يقتصر الأمر على ذلك ، بل لا بد من اعداد أطنان من المؤن وشتى الأدوات وإرسالها جميعاً الى الهند ، ثم يلتقى الرجال ومعهم متاعهم عند « دراچيلنج » ؛ وهناك يستأجر الحمالون من الوطنيين وما تطلبه الحملة من حيوانات ؛ ومن ثم تسير القافلة الطويلة قاصدة الجبل مخترقة السهول الرملية تارة ، ومتسلقة الشعاب المعترضة تارة أخرى .

وعند ما تبلغ القافلة الى قاعدة أفرست تجد نفسها على بعد هائل من مستوى سطح البحر ،

ينشأ المعسكر الأول — أو معسكر القاعدة كما

يسمونه — على مدى خمسمائة وستة عشر ألف قدم من سطح البحر

ومن تلك القاعدة الأساسية تأخذ القافلة فى الصعود ، وتراها تقيم المعسكرات على مسافات كلما قطعت مرحلة فى طريقها الرهيب ، ويكون السير بطيئاً متدرجا فى الخفة حتى يتعود الرجال مقابلة تلك الرياح العنيفة . وفى آخر مايو ينشأ المعسكر الرابع عند ما يسمى بالعقدة الشمالية وهى إحدى الشعاب التى تربط اڤرست بغيره من سلاسل الجبال ؛ ويكون ذلك المعسكر على ارتفاع ثلاثة وعشرين ألف قدم

وإذا تم بناء المعسكرات وضع فيها من المؤن ما يرجع اليه عند الحاجة ، كما انه يترك فيها بعض الرجال ، حتى يكون هناك من الحالين من يقوم على طول المسافة متنقلين أحياناً من معسكر الى آخر ، ومعنى ذلك أن يكون هناك طريق معبد آمن يربط تلك المعسكرات بعضها ببعض ؛ ويقوم البيض بتعبيد هذا الطريق وشق ممرات ومسالك فى الثلج عند المنحدرات الوعرة ، والاستعانة بالحبال عند الحاجة

ويكون كلا المعسكرين الخامس والسادس مركزاً للهجوم . وإقامة هذين المعسكرين من أصعب وأشق الأعمال ، فان جانب الجبل فى تلك المنطقة أشبه بسقف المنزل ، ولذلك يندر أن تجد مكاناً لأقامة خيمة واحدة . ناهيك بما يكتنف المكان من ريح عاصفة عاتية تلذع الأجسام لذعا أليما ، فضلاً عن ذلك الزمهرير الذى يصل درجة من الشدة بحيث لو أجلت يدك برهة فى عمل من الأعمال وهى عارية من القفاز لابد أن يقف الدم فى عروقها متجمدا ؛ وإذا زلت قدمك قيد شبر فهنالك الموت ينتظرك فى قرار سحيق ! ومع كل هاتيك الأهوال كثيرا ما يتضارب الحمالون من أجل ذلك الامتياز : امتياز حمل الأثقال بين المعسكرات . ولا غرابة بعد ذلك أن يسميهم المتسلقون من البيض « بالثمور »

ولكل قائد حملة خطته فى تعبئتها والسير بها . وهأنذا أعرض عليك فكرة عامة مما يغلب حدوثه فى تلك الخطط . يتقدم رجلان من البيض ومعهم ما يطلبون من الحالين حتى يصير الجميع على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم ، وهنالك يبنون المعسكر الخامس ويحطون عنده رحالهم ، ليريحوا أجسامهم المكدودة فترة مما نالها من نصب . وفى اليوم التالى يستأنفون تصعيدهم حتى يبلغوا علو سبعة وعشرين ألف قدم أو نحو ذلك ، وهنالك يبنون المعسكر السادس ، فيأوى اليه الأبيضان ويرسلان الحالين ثانية الى المعسكر الرابع ، وبذلك يبقى الخامس خالياً ، فيسير اليه اثنان آخران من البيض ويستقران فيه حيث يجدان الكثير من المؤونة ووسائل الراحه

وفى صباح اليوم الثالث يخرج الرجلان الأولان من المعسكر السادس ميممين القمة ، فاذا لحقهم الفشل عادوا إلى المعسكر الخامس ، وبذلك يبقى السادس خالياً فيسير إليه صاحباً المعسكر الخامس ، ويبيتان فيه ليلتهما . حتى إذا تنفس الصبح ، إن كان ثمة من أصباح ، يما شطر القمة فى دورهما وفى أثناء ذلك يكون الاثنان الأولان فى طريقهما إلى المعسكرات السفلى ليرسلا غيرهما من البيض كى

يستقرا مكانهما فى المعسكر الخامس على استعداد للزحف

بهـذه الطريقة يتوفر المتسلقون الجدد على التوالى . وإذا كان للاثنين الأولين شرف البدء فى تلك المحاولة العظيمة ، فكثيراً ما يصيب من يليهما حظاً أوفر من النجاح ، وذلك لزيادة اعتيادهم تلك الظروف الجوية المرعبة

وصلت أولى الحملات التى أعدت للهجوم على القمة إلى قاعدة اڤرست فى أول مايو عام ١٩٢٢ وهى السنة التالية للسنة التى وصلت فيها بعثة الكشف والدراسة . ولكن الثلج قصم أعوادهم وأوهن عزمهم وقضى على مجهوداتهم بالفشل . سار هؤلاء الأبطال أول الأمر حتى استطاعوا أن يبنوا المعسكر الخامس على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم ، ومن تلك البقعة استطاع بعضهم أن يرقوا إلى سبعة وعشرين ألفا ، ولكن العواصف الثلجية المروعة كانت لا تفتأ تهدد الخيام بل لم يقتصر خطر الثلج على خيامهم فوصل إليهم فى جوالق نومهم ! إلا أنهم على الرغم من ذلك عقدوا النية على مواصلة الزحف ، وتغلب عزمهم المصمم فترة على أهوال الثلج ، وما زالوا يكافحون منتصرين حتى اليوم السابع من شهر يونيو ، وهنا أنتابتهم كارثة جعلت مواصلة الزحف فى عداد المستحيل ، فلقد جرف هيار ثلجى سبعة من الحمالين وهوى بهم إلى الموت معجلين ! وربما كان البيض يرغبون أن يضحوا بحياتهم بعد ذلك ، ولكنهم لم يجدوا لأنفسهم الحق فى أن يسألوا بقية البواسل من الحمالين أن يتبعوهم ؛ وهؤلاء ان يكون لهم نصيب من الفخر إذا قدر للحملة النجاح

وفى عام ١٩٢٤ وصلت حملة أخرى إلى قاعدة ذلك الجبل ، ولكن الثلج مالبث أن رمى رجالها بقذائفه واستمر يعطر وابلاً عنيفاً من لدنه ، فبدل أن يصلوا إلى المعسكر الثالث فى يومين أو ثلاثة ، وصلوا إليه فى أسبوعين ! وكانت درجة الجو يومئذ ثلاثا وخمسين تحت درجة التجمد ! ومن أجل ذلك اضطر الحمالون وهم على ماهم عليه من بسالة أن يستقروا فى أماكنهم متلاصقين لا يكادون يستطيعون حراكا ، حتى تحسن الجو نوعاً فوصل الجميع إلى العقدة الشمالية ؛ ولكن الثلج لج فى عناده ورماهم بأكثر مما رماهم به من قبل ، وراح عدد من الحمالين ضحية بطشه وجبروته ، ونال البيض كثير من التعب والأعياء من جراء محاولاتهم إنقاذ هؤلاء البائسين ، ولذلك اضطروا إلى أن يرجعوا من حيث أتوا ليستعيدوا قوتهم ويجددوا عدتهم عند سفح الجبل !

وأخيراً بعد عدة محاولات استطاعت تلك الحملة أن تقيم خيمة لمعسكرها على ارتفاع ثمانمائة وستة وعشرين ألف قدم ، وهو أعلى معسكر أقيم حتى ذلك اليوم . ونام فى ذلك المعسكر رجلان من البيض هما « نورتون » و« سمرڤيل » ، وفى صبيحة اليوم الرابع من يونيو توجها نحو القمة فوصلا إلى علو ثمانية وعشرين ألف قدم ، ولكن « سمرڤيل » توقف وتقطعت به الأسباب إذ كان يشكو مرضاً فى حلقه ؛ وعول زميله الباسل على الزحف وحده فوصل إلى علو ثمانية وعشرين ألفاً ومائة وستة وعشرين قدماً ، ولكنه ما لبث أن أرغم على الرجوع . وفى تلك الليلة أفقده الثلج بصره !

وفى تلك الأثناء كان « مالورى » أحد المتسلقين فى طريقة على جانب الجبل يريد القمة ، وكان مالورى ، هذا أحد أعضاء البعثة التى قامت بأعمال الكشف عام ١٩٢١ ، ولقد اشترك أيضاً فى محاولة الوصول إلى القمة عام ١٩٢٢ ، فكانت إذاً تلك المحاولة التى نحن بصددها ثالث محاولاته . ولقد زاده اليأس قوة ومضاء ، فعول على السير فأما الى قمة الجبل وإما الى هاوية الموت ! ولقد وصل وصديقه « ارفين » الى المعسكر السادس وأقاما هناك ليلة ؛ وفى الصباح التالى سارا نحو القمة ويعلم الله وحده ماذا كان أمرهما إذ لم تقع عليهما عين بعد ! وكانت تلك المأساة المخيفة خاتمة الحملة الثانية ، وبعدها انقطعت المحاولات تسع سنين

ولا بد أن تكون حكومة « تيبت » قد رأت من تلك المآسى أن الآلهة فى تلك القمة المستعصية إنما كانوا ينتزلون القصاص العادل بمن كانوا يحاولون الدنو من عرشهم ، وعلى ذلك رفضت تلك الحكومة السماح مدة بمحاولة جديدة ، حتى عادت فى النهاية فسمحت بها فى خريف عام ١٩٣٢ . وسرعان ما بُدئت أعمال التعبئة والاستعداد ، وفى السابع عشر من إبريل عام ١٩٣٣ ، أقيم معسكر القاعدة من جديد

وفى هذه المرة لم تواجه الحملة الثلج فحسب بل واجهت المرض أيضاً ، فلقد فل المرض من عزائم القائمين بها ، وكان العدد الأقل من هؤلاء الرجال من يصلح حقاً لذلك العمل الهائل . وأول نتيجة لذلك أنهم لم ينشئوا المعسكر الرابع الا بعد شهر ، أى فى اليوم الخامس عشر من مايو ، ثم أرغمتهم عاصفة شديدة على الاحتماء بخيمهم حتى اليوم العشرين من ذلك الشهر ، وفى تلك المدة نفد جميع ما كان بالمعسكر من مؤن ، وعلى ذلك فبدلا من أن تواتيهم القدرة على الصعود عقب هدوء العاصفة ، نرى أول عمل يقومون به هو تموين المعسكر من جديد ، وزادهم نكداً ما علموه على لسان من أرسلوا الى المعسكرات السفلى من مرض أحد المهرة المتسلقين

ولسنا فى حاجة بعد ذلك أن نأتى على كل ما حدث من المحاولات للوصول الى القمة ، وحسبك أن تعلم أن « جوجلز » أصيب بتجمد عينيه ، كما تراكم الثلج على أهداب الرجال فجمدها ؛ على أنهم استطاعوا رغم الصعوبات الهائلة أن يقيموا المعسكرين : الخامس والسادس ، ولكن لم يتسن لأحد أن يصل الى أبعد مما وصل اليه « نورتون » عام ١٩٢٤ ؛ وما لبثت الأمطار الموسمية أن أرسلت سيولها ، وأخذ الثلج ينهار كتلاً هائلة ، فاضطرت حملة عام ١٩٣٣ أن ترجع مهزومة كسابقاتها

والآن بعد ثلاثة أعوام تصرح « تيبت » ، بالزحف من جديد ، وهنالك فى المعسكرات السفلى يقيم مستر « رتلدج » ورجاله يستمعون الى ما يحمله اليهم جهاز اللاسلكى من الهند من أنباء الجو وحالاته ويتطلعون الى القمة فى لهفة مقدرين ومؤملين ...

فياليت شعرى ماذا تخبؤه لهم الآلهة هذه المرة ؟

عن الانجليزية « عائر »

(طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)